جامعة القاهرة
كلية دار العلوم
قسم البلاغة والنقد والأدب المقارن

التوجيه البلاغي للغريب في الحديث النبوي
دراسة في أحاديث مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي

بحث مقدم لنيل درجة الماجيستير
في البلاغة

إعداد الطالب
كريم محمد محمد صديق

المشرف على الرسالة
الأستاذ الدكتور /عبد الحميد هنداوي

١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

المقدمة

إن الْحَمد لله نحمده، ونستعينه، وَنَسْتَغْفِرهُ، ونعوذ بِاللَّه من شرور أَنْفُسنَا وَمن سيئات أَعمالنا، من يهده الله فَلا مضل لَهُ، وَمن يضلل فَلا هادي لَهُ، وَأشْهد أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شريك لَهُ، وَأشْهد أَن مُحَمَّدًا عَبده وَرَسُوله، سيد الْأَوَّلين والآخرين، قدوتنا وإمامنا صلى الله وَسلم وَبَارك عَلَيْهِ وعَلى آله وَأَصْحَابه وَأَتْبَاعه وأعوانه.

أما بعد :

فإن السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم قد حوت كثيرًا من الألفاظ التي تحتاج إلى بيان معناها؛ نظرًا لغموضها، هذا الأمر الذي حدا بالعلماء إلى العناية بهذه الألفاظ وتأليف المصنفات الكثيرة في ذلك وهو ما عرف بعلم غريب الحديث .

إن اختيار النبي ﷺ للفظ الغريب ليس قصدًا للإبهام ولا تعمدًا للإغراب ، ولكنه إصابة لكبد المعنى ، إنها كلمات يحتاجها السياق ويدعو إليها الموقف ، إنه الأسلوب النبوي الذي بلغ المنتهى في البلاغة والفصاحة، وحسبه من تزكية الله -عز وجل - له في قوله "وما ينطق عن الهوى" (١)، فالاختيارات النبوية اختيارات مبنية على دراية شديدة بلغة العرب ، فهي لم توضع خبط عشواء ولكنها وضعت بعناية بالغة ودقة متناهية لتلائم معايير الفصاحة في اللسان العربي .

تظهر عناية الشرع الشديدة باختيار اللفظ المناسب للسياق من خلال أول نداء للمؤمنين في القرآن قاطبة حيث يقول الله - عز وجل - في سورة البقرة : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا..." (٢) " وَذَلِكَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَقُولُونَ رَاعِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، مِنَ الْمُرَاعَاةِ أَيْ أَرْعِنَا سَمْعَكَ، أَيْ فَرِّغْ سَمْعَكَ لِكَلَامِنَا، يُقَالُ: أَرْعَى إِلَى الشَّيْءِ، وَرَعَاهُ، وَرَاعَاهُ، أَيْ أَصْغَى إِلَيْهِ وَاسْتَمَعَهُ، وَكَانَتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ شَيْئًا قَبِيحًا بِلُغَةِ الْيَهُودِ، وَقِيلَ: كَانَ مَعْنَاهَا عِنْدَهُمُ اسْمَعْ لَا سَمِعْتَ " (٣) .

---

(١) سورة النجم الآية ٣

(٢) سورة البقرة اللآية ١٠٤ .

(٣) أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي – تفسير البغوي – ج١ ص١٥٢ – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط١ ١٤٢٠ هـ .

" وَقِيلَ: هِيَ مِنَ الرُّعُونَةِ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُحَمِّقُوا إِنْسَانًا قَالُوا لَهُ: رَاعِنَا بِمَعْنَى يَا أَحْمَقُ! فَلَمَّا سَمِعَ الْيَهُودُ هَذِهِ اللَّفْظَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: كُنَّا نَسُبُّ مُحَمَّدًا سِرًّا، فَأَعْلِنُوا بِهِ الْآنَ، فَكَانُوا يَأْتُونَهُ وَيَقُولُونَ: رَاعِنَا يَا مُحَمَّدُ، وَيَضْحَكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَسَمِعَهَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَفَطِنَ لَهَا، وَكَانَ يَعْرِفُ لُغَتَهُمْ، فَقَالَ لِلْيَهُودِ: لَئِنْ سَمِعْتُهَا مِنْ أَحَدِكُمْ يَقُولُهَا لِرَسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَهُ، فَقَالُوا: أَوَلَسْتُمْ تَقُولُونَهَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى " لَا تَقُولُوا رَاعِنَا " (١) (٢) .

بلغت عناية الشرع بالألفاظ لدرجة أن جعل النداء الأول في ترتيب القرآن بحسب الورود في المصحف هو لبيان مدى أهمية اختيار اللفظ المناسب للسياق، والعدول عن اللفظ الذي يحمل أكثر من معنى إلى لفظ أخر لا يحتمل ذلك .

هذه العناية لم تكن في القرآن فحسب بل في السنة أيضا ، نرى النبي ﷺ يعدل عن اللفظ الشائع إلى لفظ آخر غريب ليس إلا لدلالة الغريب على المعنى أكثر من الشائع ، يقول رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: خَبُثَتْ نَفْسِي وَلَكِنْ لِيَقُلْ: لَقِسَتْ نَفْسِي " مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ (٣) .

قال الطيبي : " (لقست) أي غثت واللقس الغثيان، وإنما كره (خبثت) هربا من لفظ الخبث والخبيث، واللقس أيضا السيء الخلق، وقيل: الشحيح، ولقست نفسه إلى الشيء إذا حرصت عليه ونازعته عليه ، إنما كره لفظ الخبث لشناعته " (٤) .

" وجَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: عَلِّمْنِي عَمَلًا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ قَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ لَقَدْ أَعْرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ أَعْتِقِ النَّسَمَةَ وَفُكَّ الرَّقَبَةَ» . قَالَ: أَوَ ليسَا وَاحِدًا؟ قَالَ: " لَا عِتْقُ النَّسَمَةِ: أَنْ تَفَرَّدَ بِعِتْقِهَا وَفَكُّ الرَّقَبَةِ: أَنْ تُعِينَ فِي ثَمَنِهَا ....." . رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي شعب الْإِيمَان (٥) .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٠٤ .
(٢) تفسير البغوي – ج١ ص١٥٢ .
(٣) محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٣ ص١٣٤٦ – المكتب الإسلامي - بيروت – تحقيق محمد ناصر الدين الألباني – ط٣ - ١٩٨٥ .
(٤) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج١٠ ص٣٠٩٠ – تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي – مكتبة نزار مكة – ط١ ١٩٩٧ .
(٥) محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٢ ص١٠١٠ .

قال الطيبي : " ووجه الفرق المذكور أن العتق إزالة الرق، وذلك لا يكون إلا من المالك الذي يعتق، وأما الفك فهو السعي في التخليص، فيكون من غيره كمن أدى النجم عن المكاتب أو أعانه فيه ". (١)

فبين النبي ﷺ للسائل الفرق بين العتق والفك فبينهما من الفروق ما بينهما مما جعل النبي صلى الله عليه يعطف إحداهما على الأخرى ، والعطف يقتضي المغايرة .

لذا فقد جاء هذا البحث ليلقي الضوء على الألفاظ الغريبة في أحاديث النبي ﷺ ومعالجة هذه الألفاظ معالجة بلاغية وأسلوبية من خلال إبراز النواحي الجمالية في هذه الكلمات وبيان إسهامها في أداء المعنى بصورة أدبية راقية تتناسب مع قائل النص الذي هو أفصح العرب قاطبة منذ فتق لسانها بالعربية إلى قيام الساعة .

ولأن دواوين السنة بحر لا ساحل له فقد اخترت كتابًا واحدًا من كتب الحديث لأعمل فيه جهدي وهو كتاب " مشكاة المصابيح " الذي جمعه ولي الدين أبو عبد الله ، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي ، أحد علماء القرن الثامن الهجري ، حيث نظر الخطيب التبريزي في كتاب (مصابيح السنة) الذي جمعه أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي المتوفى سنة ٥١٦ هـ أو ٥١٠ هـ فكمله وهذبه وشذبه وعين رواته ونسب الحديث إلى الأئمة المتقنين وقسمه أبوابه إلى فصول ، وقد انتهى من تصنيف الكتاب وجمعه سنة ٧٣٧ هـ ، ولا يعلم على وجه الدقة تاريخ وفاته .

وسبب اختيار هذا الكتاب تحديدًا هو تصدي إمام من أئمة البلاغة لشرح الكتاب ، فلسنا بصدد البحث عن الأحكام الفقهية والحديثية في الأحاديث في هذا البحث ، وإنما الغرض الأساسي هو البحث عن القيمة البلاغية للألفاظ الغريبة ، فالتمسناها فوجدناها عند أهلها من أهل هذا الفن ، وهو الإمام العلم صاحب التصانيف البلاغية الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي ، المتوفى سنة ٧٤٣ هـ ، الذي أطال النفس في بيان مدى ملاءمة الكلمات الغريبة لموقعها من السياق بعد شرحها وتمييزها عن مثيلاتها التي تؤدي المعنى أو قريبًا منه (٢) .

---

(١) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج٨ ص٢٤٢٦ .
(٢) اعتمدت في بيان أسماء المؤلفين وسنة وفاتهم على كتاب الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج١ ص١٨ – ٢٩ – ٣٣ – تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي – مكتبة نزار مكة – ط١ ١٩٩٧ .

ثم قمت بقراءة كتاب (مشكاة المصابيح) قراءة واعية واستخرجت ما به من ألفاظ غريبة في كلام النبي ﷺ ، ولكني لم أشأ أن أجعل من نفسي حكمًا على غرابة اللفظ من عدمها ؛ فإن معيار الغرابة نسبي يختلف باختلاف الزمان والمكان ، فعمدت إلى كتب غريب الحديث فجعلتها بغيتي في معرفة كون الكلمة من الغريب أو لا ، فهي الكتب التي ألفت قريبا من زمن النبي ﷺ بالمقارنة بزمننا ، وأصحابها هم أدرى الناس بلغة العرب ، ولكن الغريب أيضا بهذا الشكل كان من الكثرة بمكان ، فاخترت منه ما وجدت في شرحه النكات البلاغية والحُلل البيانية والتفسيرات الأسلوبية ، فإن هذا هو عماد الرسالة وصلب موضوعها . واللهَ أسالُ التوفيقَ والسداد في القول والعمل .

الباب الأول
الغريب بين البلاغة والأسلوبية

الفصل الأول
مدخل لتعريف الغريب

الفصل الأول
تعريف الغريب

الغريب لغة : جمع غرباء ، من غَرُبَ عن وطنه غرابة وغرْبةً: ابتعد عنه وغَرُبَ الكلام غرابةً: غمض وخفي (١) .
واصطلاحاً : " ما خالف الشائع المألوف وتباعد عنه " (٢) . فهو ما يخفى معناه من المتون؛ لقلة استعماله ودورانه على الألسن، بحيث يبعد فهمه ولا يظهر إلا بالتنقيب عنه فى كتب اللغة.
ورسول الله ﷺ كان أفصح العرب لسانا وأوضحهم بيانا، وكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يعرفون أكثر ما يقوله، ولكن نشأت أجيال لا تعرف من اللغة إلا ما تتخاطب به، وجهلت الكثير من الألفاظ ومعانيها فى الحديث وفى غيره ومن هنا كان سبب نشأة علم غريب الحديث .
قال الإمام النووي: "غريب الحديث: هو ما وقع في متن الحديث من لفظة غامضة بعيدة من الفهم لقلة استعمالها" (٣) .
وعرفه السخاوي بأنه: "ما يخفى معناه من المتون لقلة استعماله ودورانه، بحيث يبعد فهمه، ولا يظهر إلا بالتفتيش فى كتب اللغة" (٤) .
وعرفه ابن الصلاح بقوله: " وهو عبارة عما وقع في متون الأحاديث من الألفاظ الغامضة البعيدة من الفهم لقلة استعمالها " (٥) .
ووصفه الزمخشري بأنه: " كشف ما غرب من ألفاظه واستبهم، وبيان ما اعتاص من أغراضه واستعجم "(٦) .
واهتمامي في التعريف بذكر غريب الحديث الشريف يرجع لأمرين :
الأول : أن الجانب التطبيقي بالرسالة يُعنى بالحديث الشريف وإظهار النواحي البلاغية في تلك الأحاديث .
الثاني : أن الغريب أصبح علمًا مستقلا بذاته بعد إلقاء الضوء عليه من قبل علماء الحديث فهم أول من نظر إلى الغريب باعتباره مادة تستحق الدراسة المنفصلة ، لذا نراهم يصنفون له التصانيف المستقلة، وينشئون له الدواوين الخاصة . فالمراد بغريب الحديث: الألفاظ اللغوية البعيدة المعنى والغامضة التي تحتاج إلى شرح وإيضاح، وعلم غريب الحديث فن قائم بذاته ألفت فيه مؤلفات عديدة.

---

(١) مجمع اللغة العربية – المعجم الوسيط – ج٢ ص٦٤٧ – دار الدعوة – ط١ .
(٢) د/ محمود نحلة – لغة القرآن الكريم في جزء عم – دار النهضة العربية – بيروت – ط١ ١٩٨١ م .
(٣) النووي – التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير – ص٨٧- دار الكتاب العربي بيروت – ط١ .
(٤) السخاوي – فتح المغيث بشرح ألفية الحديث – ج٤ ص٢٤ – مكتبة السنة مصر – ط١.
(٥) أبو عمرو ابن الصلاح – مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث – ص٤٥٨ – دار المعارف مصر – ط٢ .
(٦) الزمخشري – الفائق في غريب الحديث – ج١ ص١٢ – دار المعرفة لبنان – ط٢.

أهمية علم غريب الحديث:

يعتبر هذا الفن من العلوم التي يُحتاج إليها في معرفة معاني الأحاديث، حيث يترتب عليه الحكم على المتن من جهة، واستنباط الأحكام منه من جهة أخرى، وهو صورة من صور شرح الحديث فيحتاج إلى علم واسع بهذا الفن مع التحري والدقة.
فقد سئل الإمام أحمد عن حرف من غريب الحديث فقال: "سلوا أصحاب الغريب، فإني أكره أن أتكلم في قول الرسول ﷺ بالظن فأخطئ" (١) .

يقول الحافظ ابن حجر : " فإن خفي المعنى بأن كان اللفظ مستعملا بقلة احتيج إلى الكتب المصنفة في شرح الغريب" (٢) .

ويوسع السخاوي الغرض منه فيقول : " وهو من مهمات الفن لتوقف التلفظ ببعض الألفاظ فضلاً عن فهمها عليه، وتتأكد العناية به لمن يروي بالمعنى " (٣).

وسئل الأصمعي عن معنى حديث: (الجار أحق بسقبه) فقال: " أنا لا أفسر حديث رسول الله ﷺ، ولكن العرب تزعم أن السقب اللزيق" (٤) .

وإلى مثل هذا ذهب الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه على ألفية السيوطى فقال: " هذا الفن من أهم فنون الحديث واللغة، ويجب على طالب الحديث إتقانه، والخوض فيه صعب، والاحتياط في تفسير الألفاظ النبوية واجب، فلا يقدمنّ عليه أحد برأيه ... ثم إن من أهم ما يلحق بهذا النوع البحث فى المجازات التى جاءت فى الأحاديث، إذ هى عن أفصح العرب ﷺ، ولا يتحقق فى معناها إلا أئمة البلاغة، ومن خير ما ألف فيها كتاب المجازات النبوية تأليف الإمام العالم الشاعر الشريف الرضي" (٥) .

---

(١) أبو عمرو ابن الصلاح ـ مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث ـ ص ٤٥٨ .
(٢) ابن حجر العسقلاني ـ نخبة الفكر ص ٤٧ـ٤٨ ـ المكتبة العلمية ـ المدينة المنورة ـط ٣.
(٣) السخاوي – فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي – ج٤ ص٢٤ – مكتبة السنة – مصر – ط١ - ٢٠٠٣ م.
(٤) أبو عمرو ابن الصلاح ـ مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث ـ ص ٢٧٣ .
(٥) ألفية السيوطي، ومعه تعليق الشيخ أحمد شاكر، ص ٢٠١ـ٢٠٢ دار المعرفة بيروت .

أهم كتب غريب الحديث (١) :

أول من جمع في هذا الفن أبو عبيدة معمر بن المثني (١١٠ - ٢٠٩ هـ)، فجمع من ألفاظ غريب الحديث والأثر كتيباً صغيراً، ولم تكن قلته لجهله بغيره من غريب الحديث، وإنما كان ذلك لأمرين :
أحدهما: أن كل من بدأ في فن لم يسبق إليه فإنه يكون قليلاً ثم يكبر .
والثاني: أن الناس يومئذ كان عندهم معرفة بلغة العرب، ولم يكن الجهل باللغة قد عم كما حصل في العصور المتأخرة.

ثم جمع أبو الحسن النضر بن شميل المازني (١٣٢ - ٢٠٣ هـ) كتاباً أكبر من كتاب أبي عبيدة بسط فيه القول على صغر حجمه . ثم جمع عبد الملك بن قريب الأصمعي المشهور (١٢٢ - ٢١٦ هـ) كتاباً أحسن فيه وأجاد، وكان كتابه أكبر حجماً ممن سبقه . وكذلك فعل محمد بن المستنير المعروف بقطرب (٢٠٩ هـ) وغيره من الأئمة الذين جمعوا أحاديث وتكلموا على لغتها ومعناها في أوراق ذوات عدد، ولم يكد أحدهم ينفرد عن الآخر بكثير من الأحاديث.

واستمر الحال إلى زمن أبي عبيد القاسم بن سلام (١٥٧- ٢٢٤ هـ) وكان من كبار علماء الحديث والأدب والفقه، فجمع كتابه المشهور في غريب الحديث والآثار، والذي أفنى فيه عمره حيث جمعه في أربعين سنة، وهو كتاب حافل بالأحاديث والآثار الكثيرة المعاني، اللطيفة الفوائد، وكان يظن رحمه الله على كثرة تعبه أنه أتى على معظم الغريب، والمصنف هنا يذكرالأحاديث الواردة فيها هذه الكلمات أو العبارات ويأتي عليها بالشواهد من اللغة العربية وأقوال العرب، والكتاب غير مرتب على حروف المعجم ولكن في آخر الكتاب فهرس بالألفاظ الموجودة في الكتاب مما يسهل عملية البحث.

وبقي كتابه معتمد الناس إلى عصر أبي محمد عبد الله بن مسلم قتيبة الدينوري (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) فصنف كتابه المشهور في غريب الحديث، انتهج فيه نهج أبو عبيد في كتابه فتتبع ما أغفله أبو عبيد من ذلك، ولم يودعه شيئاً من كتاب أبي عبيد إلا ما دعت إليه الحاجة من زيادة شرح وبيان، أو استدراك أو اعتراض، فجاء مثل كتاب أبي عبيد أو أكثر منه، حتى ظن ابن قتيبة أن لا يكون بقي بعد هذين الكتابين من غريب الحديث ما يكون لأحد فيه مقال.

---

(١) انظر أحمد محمد الخراط - منهج ابن الأثير الجزري في مصنفه «النهاية في غريب الحديث والأثر» - مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة – ص٦ وما بعدها .

وكان في زمان ابن قتيبة الإمام إبراهيم بن إسحاق الحربي الحافظ فجمع كتاباً كبيراً في خمس مجلدات بسط القول فيه، واستقصى الأحاديث عن طريق أسانيدها، وأطاله بذكر متونها، فطال كتابه وتُرِك وهجر، وإن كان كثير الفوائد، وقد توفي ببغداد سنة ٢٨٥هـ.

ثم أكثرَ الناسُ من التصانيف في هذا الفن كالمبرد اللغوي المشهور، وثعلب، ومحمد بن القاسم الأنباري، وسلمة بن عاصم النحوي، وعبد الملك بن حبيب المالكي، ومحمد بن حبيب البغدادي، وغيرهم ممن لا يحصون من أئمة اللغة والنحو والفقه والحديث.

واستمر الحال إلى عهد الإمام الخطابي البستي المتوفى سنة (٣٧٨هـ) فألف كتابه المشهور في غريب الحديث، وسلك فيه نهج أبي عبيد وابن قتيبة، وصرف عنايته فيه إلى جمع ما لا يوجد في كتابيهما، فاجتمع له من ذلك ما يداني كتاب أبي عبيد وكتاب ابن قتيبة.

فكانت هذه الكتب الثلاثة في غريب الحديث والأثر أمهات الكتب، وهي الدائرة بين أيدي الناس وعليها يعول علماء الأمصار، غير أن هذه الكتب الثلاثة وغيرها لم يكن فيها كتاب مرتب ترتيباً يستطيع الإنسان أن يأخذ حاجته منه بسرعة، بل يجد الباحث فيها كل تعب وعناء حتى يصل إلى الحديث.

وبقي الحال كذلك إلى أن جاء أبو عبيد أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الباشاني الهروي، المتوفى سنة (٤٠١ هـ) ، وهو من معاصري الخطابي فألف كتابه السائرفي غريب القرآن والحديث، جمع فيه بين غريب القرآن والحديث، ورتبه ترتيباً لم يسبق إليه، فاستخرج الكلمات اللغوية الغريبة من أماكنها، وأثبتها في حروفها مرتبًا لها على حروف المعجم، وحذف الأسانيد وجمع فيه من غريب الحديث ما في كتب من تقدمه، وزاد عليه، فجاء كتاباً حافلاً جامعاً، إلا أنه جاء الحديث مفرقاً في حروف كلماته . وقد ذاع صيت هذا الكتاب بين الناس واتخذوه عمدة في الغريب، واقتفى أثره كثيرون واستدرك ما فاته آخرون.

ثم جاء الإمام أبوالقاسم محمود بن عمر الزمخشري جار الله، المتوفى سنة (٥٣٨هـ)، فألف كتابه (الفائق في غريب الحديث)، وهو كتاب قيم جامع، رتبه على وضع اختاره على حروف المعجم، ولكن العثور على معرفة الغريب منه فيه مشقة، وذلك لأنه يجيء بشرح الكلمات الغربية في حرف واحد فترد الكلمة في غير حروفها، فلذلك كان كتاب الهروي أقرب منه تناولاً، وإن كانت كلمات الحديث متفرقة في حروفها.

والإمام أبو الفرج الحافظ عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي صنف كتاباً في غريب الحديث نهج فيه طريق الهروي مجرَّداً عن غريب القرآن، يغلب عليه الوعظ، قال فيه: " قد فاتهم أشياء فرأيت أن أبذل الوسع في جمع الغريب وأرجو أن لا يشذ عني مهم من ذلك، وأن يغني كتابي عن جميع ما صنف في ذلك " (١) .

النهاية في غريب الحديث والأثر:

ثم جاء مجد الدين مبارك بن محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير فألف كتابه النهاية في غريب الحديث والأثر، رتبه على حروف المعجم أيضاً، وقال في مقدمته : " ولقد تتبعت كتاب ابن الجوزي فرأيته مختصراً من كتاب الهروي منتزعاً من أبوابه شيئاً فشيئاً ، ووضعاً فوضعاً، فلم يكن إلا جزءًا يسيرًا من أجزاء كثيرة، وأما أبو موسى الأصفهاني رحمه الله فإنه لم يذكر في كتابه مما ذكره الهروي إلا كلمة اضطر إلى ذكرها إما لخلل فيها أو زيادة في شرحها أو وجه آخر في معناها، ومع ذلك فإن كتابه يضاهي كتاب الهروي كما سبق لأن وضْعُ كتابِهِ استدراكٌ لما فات الهروي " (٢) .

ويقول : " ولما وقفت على كتابه الذي جعله مكملاً لكتاب الهروي ومتمماً وهو في غاية الحسن والكمال، وكان الإنسان إذا أراد كلمة غريبة يحتاج إلى أن يتطلبها في أحد الكتابيْن فإن وجدها فيه وإلا طلبها من الكتاب الآخر، وهما كتابان كبيران ذوا مجلدات عدة ولا خفاء بما في ذلك من الكلفة، فرأيت أن أجمع ما فيهما، من غريب الحديث مجرَّداً من غريب القرآن، وأضيف كل كلمة إلى أختها في بابها تسهيلاً لكلفة الطلب " (٣) .

إلى أن قال: كما يكون قد فاتني من الكلمات الغريبة التي تشتمل عليها أحاديث الرسول ﷺ وأصحابه وتابعيهم رضي الله عنهم، جعلها الله سبحانه ذخيرة لغيري يظهرها على يده ليذكر بها، ولقد صدق القائل: كم ترك الأول للآخر(٤) . ويبقى كتاب النهاية هو النهاية في هذا الفن، وهو أكبر مرجع في غريب الحديث.

---

(١) ابن الجوزي – غريب الحديث – ج١ ص٤ – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٨٥ .
(٢) ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث – ج١ ص٩ – المكتبة العلمية – بيروت ١٩٧٩.
(٣) المصدر السابق – ص٩ .
(٤) المصدر السابق – ص١١ .

وقد تحدَّث الإمام الخطابي في مقدمة كتابه (غريب الحديث) عن أسباب نشأة الغريب في حديث رسول الله ﷺ ، وأشار إلى أنَّ الرسول ﷺ بُعِث مُبَلِّغاً ومُعَلِّماً، فهو لا يزال في كلّ مَقامٍ يقومُه وموطنٍ يشهده، يأمر بمعروف، وينهى عن منكر، ويُفتي في نازلة، والأسماع إليه مُصْغِية. وقد تختلف في ذلك عباراتُه، ويتكرَّر بيانُه، ليكون أوْقَعَ للسامعين. وأولو الحفظ والإتقان من فقهاء الصحابة يرْعون كلامه سمعاً ويستوفونه حِفْظاً، ويُؤَدُّونه على اختلاف جهاته، فيجتمع لذلك في القضية الواحدة عدةُ ألفاظ تحتها معنى واحد. وكان الصحابة -رضي الله عنهم- يفهمون جُلَّ حديث نبيهم -ﷺ- وما خَفِيَ عليهم منه سألوه عنه، وأزالوا الإشكال عنه. وبعد انقضاءِ عصرهم، مضى المسلمون فاتحين يُبَلِّغون رسالة الله في الأرض، ومن الطبيعي أن يختلطوا ويختلط أولادهم بالأمم الأخرى، فتمتزج الألسنة، ويغيب عصرُ الفصاحة، وتَضْعُفَ سبُلُ المحافظة عليها، مع استمرار الاتصال بالأمم الأخرى، ودواعي امتزاج الألسنة والشعوب (١) .

مما سبق يتبين لنا أن بعضًا مما عده الناس من الغريب في أحاديث النبي ﷺ هو من معلوم لغة قريش التي تتحدث بها ، وقد لحقته الغرابة بسبب توالي العصور عليه ، ولا أقول إن كل ما تحدث به النبي كان معلوما لهم ، بل توجد طائفة كبيرة منه ، كان الصحابة أنفسهم يسألون عن معناه لغموضه عليهم ، وقد أوليت جُل عنايتي في هذا البحث بهذا الغريب الذي كان غريبًا في زمن النبي ﷺ فضلا عن غرابته – ولا شك – في العصور التالية .

---

(١) انظر الخطابي – غريب الحديث – دار الفكر – دمشق – ١٩٨٢ م - ج١ ص٦٨ .

الفصل الثاني
الغريب في دراسة البلاغيين

مدخل

عني البلاغيون قديمًا وحديثا بالغريب وجدوى استعماله في الكلام ، وتباينت نظرتهم حوله ، وهاأنا ذا أطوف بكتبهم عساني أصل إلى دراسة تميط اللثام عن حقيقته ، والبلاغيون قد أفردوا دراسته في حديثهم عن الفصاحة وشروطها ، حيث قد وضعوا شروطا لفصاحة الكلمة فجعلوا منها خلوها من الغرابة ، والابتذال ، وتنافر الحروف ، ومخالفة العرف ، وكثرة الحروف الذي ينشأ عنه غرابة في نطق الكلمة (١) .

تلك هي أهم العيوب التي تخل بفصاحة الكلمة المفردة في تصور بعض البلاغيين ، وهو تصور يشوبه بعض القصور ، لأنه يعني أن ألفاظ اللغة تنقسم إلى قسمين لا ثالث لهما ولا تداخل بينهما : فصيح وهو ما برئ من تلك العيوب ، وغير فصيح وهو ما كان فيه عيب أو أكثر منها ، وهذا مما لا يمكن التسليم به على إطلاقه ، فالفصاحة أو الجمال أو القبح أو الوضوح أو ما إلى ذلك ليست خواصًا ذاتية للألفاظ ، بل هي صفات عارضة تكتسبها الألفاظ في سياقاتها فاللفظة الواحدة قد تكون فصيحة في سياق وغير فصيحة في سياق آخر (٢) .

وحسب الغريب في الحديث النبوي بلاغة خروجه من لسان النبي ـ صلى الله عليه وسلم – الذي هو أفصح العرب قاطبة ، ولم لا ؟ وقد قال عنه ربه " وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى " (٣) فنحن لسنا في معرض الدفاع عن الغريب في الحديث النبوي ولا نسعى لمحاولة إثبات فصاحته ، بل نحاول جاهدين إبراز النواحي الجمالية في هذا الغريب ، وتسليط الضوء على مدى ملاءمته للسياق الذي جاء فيه ، مع الأخذ في الاعتبار أنه لم يكن كثيرا ولا متكلفا، بل هو قليل جاء كالملح الذي يصلح الطعام ليزيده حلاوة .

---

(١) انظر ابن سنان الخفاجي – سر الفصاحة – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى – ص ٦٤ وما بعدها .
(٢) انظر د حسن طبل – د عبد الرحمن فودة – البلاغة العربية مصطلحات ومفاهيم – ألفا للنشر والتوزيع – بدون تاريخ – ص ١٩ .
(٣) سورة النجم – الآيات (٣ – ٥) .